سيرة العلاّمة يوسف شمعون السّمعانيّ وأبرز منجزاته[١]

(١٦٨٧–١٧٦٨)

إشكاليّات سيرته

يتحدَّر يوسف شمعون السمعاني[٢] من أسرة عريقة، أعطت عددًا وافرًا من رجال الدين والدنيا، كما أعطَت عدداً من القياديّين والأعلام على المستويَين الفكريّ والروحيّ.

كان مولده في ٢٧ تموز ١٦٨٧[١] في بلدة حصرون، ويُقال في حيّ الحصارنة في طرابلس[٢]. في التاسعة من عمره، أي عام ١٦٩٦[٣]، سافر الفتى إلى روما للدراسة في المدرسة المارونيّة.

---

[١] الريحانيّ، أمين ألبرت، **المقدّمة**، **كتاب الإلهيّات – مخطوط من العام ١٧٠٨**، الكتاب الأوّل، القسم الأوّل، تأليف يوسف شمعون السمعانيّ، منشورات جامعة سيّدة اللويزة – مكتب الأبحاث والإنماء، لبنان، ٢٠٠٣، المقدّمة ص ٧–١٠، ٤٥–٤٨.

[٢] اختلفت المصادر حول اسم والد السمعاني: هل هو سمعان أم شمعون؟ ورغم أنّ التفسير اللغويّ يربط الإثنين معًا، لكن من المفيد أن تُرجَّح لفظة على أخرى كي يستقرّ الاسم، ويُثبَّت على صيغة مُعيَّنة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، عُدنا الى ٢٧ مرجعًا، بين كتاب ومقال. ووجدنا أنّ اثني عشر منها يُثبِت اسم يوسف سمعان السمعاني، وأربعة عشر منها يُثبِت اسم يوسف شمعون السمعاني، وواحد فقط يُشير الى الإثنين معًا من دون أيّ ترجيح، ذاكرًا يوسف سمعان أو يوسف شمعون...أي ذاكرًا الاسمين معًا مع لفظة "أو" بينهما. ونلاحظ أنّ مُعظم من ثبّتوا اسم يوسف سمعان هم من أصحاب المراجع السابقة، و منهم يوسف الدبس في تاريخ سورية، والجامع المُفصَّل، ولويس شيخو في المخطوطات العربيّة لكَتَبة النصرانيّة، ولويس بليبل في تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، أو مِمَّن يُشكِّلون طليعة المرجعيّات الروحيّة، كالبطريرك نصرالله بطرس صفير، أو طليعة المرجعيّات الفكريّة كفيليب حتّي.

أمّا الذين ثبّتوا اسم يوسف شمعون، فمن أوّلهم يوحنّا نطَين في "نبذة..."(١٨٨١) ومُعظَم الآخرين من أصحاب المراجع اللاحقة، أمثال ناصر الجميّل في كتابه ***Les Echanges Culturels entre les Maronites et l'Europe*** وأنطوان ضو الأنطونيّ في مقالة له في مجلّة الوحدة (١٩٦٨)، وعبدو خليفة وفرنسيس البيسري في كتاب **ثبتٌ منطقيّ للمخطوطات المحفوظة في بكركي**، وبولس قرألي في كتاب **اللآلي في حياة المطران عبدالله قرألي**، واغناطيوس سعادة في مقالة له في مجلّة دراسات (١٩٨٥)، وبولس صفير في كتاب **الذكرى المئويّة الرابعة للمدرسة المارونيَة في روما**، وبولس مسعد ونسيب وهيبة الخازن في **الأصول التاريخيّة**. أمّا بطرس البستاني فقد ذكر التسميَتَين في **دائرة المعارف**.
العودة الى هذه المصادر إذًا لا تُساعد الباحث في حسم موضوع الاسم الثلاثي والدقيق للسمعانيّ كما كان يوقّعه في أوراقه ومؤلَّفاته. وعودة إلى بعض مخطوطاته تُشير الى الآتي: في مخطوط **جامع الألفاظ السريانيّة المُتكنّي لكسيقون** رقم LP07 في دير سيّدة اللويزة، نقرأ في مطلع المخطوط: "بدأه يوسف شمعون السمعانيّ..."، وفي نهاية حرف الألف، ص ٣٨، نقرأ:"كتبه بيده أحقر الناس وأرذلهم الشمّاس يوسف شمعون السمعانيّ الحصرونيّ ابن شمعون ابن الخوري يوسف ابن الشدياق شمعون المتكنّي بخاطر..."، وفي نهاية حرف الباء، ص ٥٠، نقرأ للمرّة الثالثة:"كمل على يد الشمّاس يوسف شمعون الحصرونيّ..."، وتتكرّر هذه الجملة حرفيًّا في نهاية حرف الجيم، ص ٦٢. وفي الختم الخاصّ بالسمعانيّ المطبوع على ورقة الحماية الأولى من المخطوط الرقم ١٢٤ بكركي، القسم الأوّل، جاء الاسم الثلاثيّ: يوسف شمعون السمعانيّ. وعنوان هذا المخطوط: **كتاب في بطاركة المشرق الأربعة**. وفي خاتمة الجزء الأوّل من **كتاب الإلهيّات** (وهي النسخة الأولى وبخطّ السمعانيّ والموجودة في دير الرهبانيّة المارونيّة المريميّة في روما، مخطوط رقم ٢٥٧، وهي تُشكِّل مادّة الكتاب الذي ننشُرُه الآن) نقرأ: "يوسف شمعون المارونيّ..." أمّا المخطوط الرقم ٢٥٨ (روما) والذي يضمّ ثلاثة مؤلَّفات هي: **مدخل الى العلوم**، و**كتاب المنطق**، و**كتاب الجَدَل**، دوَّن السمعانيّ، على كامل الصفحة ٢٦، اسمه بخطّ يده على الشكل الآتي: يوسف شمعون ابن شمعون ابن يوسف ابن شمعون الحصرونيّ المارونيّ تلميذ مدرسة انتشار الإيمان في رومية العُظمى". وأخيرًا نقرأ في حاشية كتاب **العلم الطبيعيّ** (مخطوط رقم ٢٦٠، روما) اسم المؤلِّف "يوسف ابن شمعون الحصرونيّ المارونيّ". بعد هذه الأدلّة الحاسمة نجد أنّ الاسم الكامل والدقيق للسمعانيّ، موضوع هذه المُقدِّمة ومؤلِّف **كتاب الإلهيّات** هو: يوسف شمعون السمعانيّ الحصرونيّ. وقد اشتهر بالاسم الثلاثيّ: يوسف شمعون السمعانيّ. ولا يجوز، بعد هذه الأدلّة الحاسمة، أن تُستبدَل لفظة شمعون بلفظة سمعان بحجّة المطابَقة اللغويّة، لأنّ المُطابَقة اللغويّة في الاسم العَلَم لا تجوز، سيّما إذا لم يقرّها صاحب الاسم.

وهناك تعلّم اللاتينيّة والإيطاليّة إلى جانب العربيّة والسريانيّة[٤]. كما درس فنّ الخطابة والأخلاق والجَدَل والتاريخ، ثمّ الفلسفة واللاهوت والقانون. تابع تحصيله العلميّ في المدرسة المارونيّة طوال ١٣ سنة، وقبل مُغادرته مقاعد الدراسة بدأ بالتأليف. وكان آنذاك قد ألَّف كُتُبًا في قواعد اللغة السريانيّة، وفي المنطق، واللاهوت. وعند تخرُّجه أوكَل إليه البابا اكليمنضوس الحادي عشر أمر فهرسة المخطوطات الشرقيّة، ثمّ عيّنه في ١٠ آذار[٥] سنة ١٧١٠ ترجمانًا وكاتبًا للّغات الشرقيّة في المكتبة الفاتيكانيّة (Scriptor Orientalis[٦]). في تمّوز ١٧١٠[٧] حصل السمعانيّ على درجة الملفنة[٨] في الفلسة اللاهوت، ثمّ سيمَ كاهنًا في روما وفق الطقس المارونيّ، وقد تضاربَت الآراء في تاريخ سيامته[٩].

---

[١] اتَّفقَت مُعظم المصادر اللبنانيّة على سنة ولادة السمعانيّ وهي ١٦٨٧. أمّا المؤرّخ الإيطالي تيبالدو، فيحدِّد خطأً تاريخ ولادته بسنة ١٦٨٦، Tipaldo, ***Biografia Degli Italiana***, Vol.1: ***Assemani***. وكذلك الكاردينال ماي الذي يُحدِّد خطأ تاريخ مولده بسنة ١٦٨٢، Mai, A., ***Novae Patrum Bibliothecae***, t. Xa, vius te Rome, 1905, p.391. لكنّ المصادر اللبنانيّة اختَلفت بشهر ولادته. ففي حين يُشير معظم الباحثين إلى شهر تمّوز، ومنهم الدبس وفهد وصفير وديب والجميّل، يُحدِّد قلّة آخرون شهر آب، ومن هؤلاء نطَين وشيخو وغانم ورزق. ولضبط تاريخ ميلاد السمعانيّ بالسنة والشهر واليوم، يعود المطران بطرس ديب في كُتيِّب بالفرنسيّة حول وصايا السمعانيّ وأحفاده، ويستشهد بنصّ محفور على ضريحه، جاء فيه: " توُفيِّ في ١٣ كانون الثاني سنة ١٧٦٨ وعمره ثمانون سنة وخمسة أشهر و١٧ يومًا." ويستنتج المطران ديب أنّ مولده كان بالضبط في ٢٧ تمّوز سنة ١٦٨٧ Dib, Pierre, ***Joseph Simon Assemani et ses deux Neveux, Leurs Testaments***, G.P. Maisonneuve, Paris, 1939, pp.3-4.

[٢] اختلف الباحثون أيضًا في مكان الولادة. مُعظمهم ذكر طرابلس مسقطًا لرأسه (حيّ الحصارنة قرب باب التبّانة).

[٣] يستند الجميَّل على مخطوط فاتيكانيّ سريانيّ رقم ٤١٠، ص ٧٧، الذي نَشَره إبراهيم حرفوش مُسلسَلًا في المنارة ١٩٣٥-١٩٣٦ (المنارة، ١٩٨٨، ص ٣٦). أمّا فهد فيذكر تاريخ سَفَر السمعاني إلى روما عام ١٦٩٥، أي في سنِّه الثامنة، كما يذكر نطَين. ويتّفق صفير (المنارة، ١٩٨٤، ص ١٦٨، ودراسات، ١٩٨٥، ص٢٢٠) مع الجميّل في تحديد سنة السفر إلى روما، قي حين يذكر رزق الإحتِمالَين من دون القول الفصل (الموسوعة المارونيّة، ص ٤٤٠). وكان ديب، في كُتيِّبه الفرنسيّ حول وصايا السماعنة، قد أثبتَ عام ١٦٩٦ تاريخًا لسفر السمعانيّ إلى روما.

[٤] ذكرَ بعض المصادر أنّ السمعانيّ أتقن أكثر من ثلاثين لغة. إلاّ أنهّ يصعب الفصل في هذه المسألة. لكنّ المُلفِت للانتباه أنّ إتقان عددٍ كبيرٍ من اللغات حينه يُشير إلى ثقافة واسعة تمتَّع بها السمعانيّ، كما يُشير إلى تُقدُّمه العلميّ والأدبيّ على أترابه ومواطنيه، ما يُفسِّر بعض التفسير غزارة تآليفه وتعدُّد المواضيع التي كتب فيها، وتشعُّب تلك المادّة التأليفيّة الغنيّة.

[٥] نشرَ الأب يوحنّا نطَين، الراهب الحلبيّ اللبنانيّ، كُتيِّباً بعنوان **نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية** ليوسف شمعون السمعانيّ صدَّره بمقدِّمة عن حياة السمعانيّ ومؤلَّفاته. طُبع الكُتيِّب بمطبعة مجمع إنتشار الإيمان المقدَّس في روما عام ١٨٨١. وأشار نطَين في مقدّمته إلى أنّ تعيين السمعانيّ ترجمانًا في المكتبة الفاتيكانيّة تمَّ في ١٠ آذار سنة ١٧١٠. ونلفت الانتباه هنا إلى أنّ مقدّمة نطَين تُشكِّل أقدم وأندر مرجع حول السمعانيّ.

[٦] راجع الخوري ناصر الجميّل في كتابه: ***Les Echanges culturels entre les maronites et l'Europe***, Beyrouth, 1984, Vol. 1, p.420

[٧] يذكر الدبس أنّ السمعانيّ نال شهادة الملفنة في ٤ تمّوز ١٧١٠، في حين أنّ الجميّل يؤكِّد أن ذلك حصل في ١٩ تمّوز من العام نفسه، استناداً إلى أرشيف مجمع نشر الإيمان. وقد أشار صفير أيضًا إلى هذا الاختلاف، مُرجِّحًا تاريخ ١٩ تمّوز، مُعوِّلاً على المرجع نفسه (المنارة، ١٩٨٤، العددان ١ و٢، ص ١٦٩).

[٨] يُشير بعض المصادر باللغة الفرنسيّة إلى هذه الدرجة، أو الشهادة، مُترجِمًا إيّاها بعبارة دكتور في الفلسفة، كما ورد عند الجميّل في كتابه بالفرنسيّة ***Les Echanges Culturels***... (ص٤٢١) أو عند رزق في الموسوعة المارونيّة (ص٤٤٠). ولكنْ نميل إلى القول بأنّ هذه الترجمة ليست دقيقة، وبأنّ شهادة الملفنة لا تعني أنّ حاملها هو "دكتور في الفلسفة"، لأنّ العديد من رجال الإكليروس الذين نالوا درجة الملفنة آنذاك لم يُعتَبَروا أنّهم من حاملي شهادة الدكتوراه، إذ ليس كلّ مَن حمل درجة الملفنة هو حامل لقب دكتور. ومن المُفيد، في مثل هذه الحال، العودة إلى مُستَنَد تاريخيّ ثابت يُعادل درجة الملفنة بشهادة الدكتوراه ليستقيم كلام الجميّل ورزق. أمّا لفظة الملفنة فمصدرها ملفونو بالسريانيّة أي المُعلِّم.

[٩] لا تُشير معظم المصادر إلى سنة رسامة السمعانيّ كاهنًا، لكنّ الجميّل يورد السنتَين المذكورتَين في غياب مُستَنَد يُحدِّد هذا التاريخ بصورة حاسمة. كما يُشير الجميّل إلى جهل اسم المطران الذي رسمه، مُضيفًا: "رُبَّما يكون المطران جرجس بنيامين، الذي صدف وجوده في عاصمة الكثلكة للمُطالبة بإقصاء البطريرك يعقوب عوّاد من السُدّة البطريركيّة". (المنارة، ١٩٨٨، العدد الأولّ، ص ٣٧) لكنّ الجميّل يُرجِّح سنة ١٧١١، إستنادًا إلى رسالة من السمعانيّ إلى البابا في السنة نفسها. (م.ن.، ص ٣٧). وكان الخوري نعمة الله عوّاد قد رجَّح التاريخ التقريبيّ لسيامة السمعاني كاهنًا قبل العام ١٧١١ كأساس لانخراطه في الدوائر الفاتيكانيّة لاحقًا (من **مخطوطات الخوري نعمة الله عوّاد** التي دوَّنها في روميه أوائل القرن العشرين، وهي اليوم في محفوظات بكركي). وإذا عدنا إلى مقدِّمة الأب يوحنّا نطَين لكُتيِّب **نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية** نراه مُحدِّداً التواريخ باليوم والشهر والسنة ليقول إنّ السمعانيّ انضمَّ إلى الرتبة الإكليريكيّة في ١٣ كانون الأوّل سنة ١٧١٣ ثمّ كاهنًا في ٢٥ آب ١٧١٩. (**نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية**، مطبعة مجمع إنتشار الإيمان المقدَّس، ١٨٨١، ص ٢). أمّا "البطريرك" يوسف مبارك الريفونيّ، فقد وجَّه رسالة بتاريخ ١٩ نيسان ١٧١٣ إلى الخوراسقف بطرس التولاوي، رئيس كهنة حلب، يُشير فيها إلى أنّ رئيس [القدس] المذكور كتب إلى القسّ يوسف شمعون وإلى غيره...". (الأباتي بطرس فهد، **البطريرك يعقوب عوّاد في الميزان**، ١٩٨١، ص ٦١). ويُستدلّ من هذه الرسالة أنّ يوسف شمعون السمعانيّ قد سيمَ كاهنًا قبل هذا التاريخ.

عام ١٧١١، طلب السمعانيّ من البابا أن يسمح بانتقاله من الطقس المارونيّ إلى الطقس اللاتينيّ[١]، فاستجاب البابا لطلبه، ثمّ عيَّنه مستشارًا للجنة إصلاح الكتب الطقسيّة للكنائس الشرقيّة، ثمّ رئيس بعثة المخطوطات الشرقيّة سنة ١٧١٥، فطاف عددًا من المدن والقرى في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان، جامعًا المخطوطات لضمّها إلى مكتبة الفاتيكان. واعتُبِرَت هذه الحملة محطّة بارزة في حركة الإستشراق الأوروبيّ مع مطلع القرن الثامن عشر.عام ١٧٢٨ رقَّته السلطات الرومانيّة إلى منصب مساعدٍ للأمين الثاني للمكتبة الفاتيكانيّة جيوفاني فينيولي (Vignoli). وبعد وفاة هذا الأخير في ١٨ أيلول ١٧٣٠، حلَّ السمعاني محلّه في ٢١ تشرين الأوّل من تلك السنة[٢]. بعد ذلك توالَت المناصب الإداريّة والروحيّة التي تولّاها السمعاني بكلّ أمانة ومسؤوليّة. ومن أبرز هذه المناصب: حاجب رسوليّ (camérier) ١٧٣٢، خوري أسقف صاحب الحقّ بارتداء الملابس الحبريّة ١٧٣٥، القاصد الرسوليّ إلى لبنان ١٧٣٦، مُستشار في مجمع نشر الإيمان ١٧٣٨، القانونيّ (Chanoine) لكاتدرائيّة مار بطرس في الفاتيكان في ١٨ كانون الثاني ١٧٣٩، وكان قد عُيِّن حافظ مكتبة الفاتيكان في ٣ كانون الثاني ١٩٣٩، وقد احتفظ بهذا المنصب حتّى وفاته. عام ١٧٥١ عيَّنه ملك صقلّية ونابولي وإسبانيا[٣]، شارل الرابع، مؤرِّخًا لمملكة نابولي؛ وبعد سنة مُنِحَ حقّ المواطنيّة فيها. في ٢٥ تشرين الأوّل ١٧٥٩ عيَّنه البابا اكليمنضوس الثالث عشر في وظيفة أمين سرّ (دفتريّ) مجمع سرّ التوبة، ثمّ أمين الختم [البابويّ]في ٢٤ شباط ١٧٦١[٤]. وفي مطلع كانون الأوّل ١٧٦٦، أي قبل وفاته بسنة تقريبًا، رقّاه البابا اكلمنضوس الثالث عشر إلى الكرسيّ الأسقفيّ على مدينة صور شرفًا. وكانت وفاته في ١٣ كانون الثاني ١٧٦٨[٥] (وعمره ثمانون سنة وخمسة أشهر، و١٧ يومًا[٦])، ودُفِنَ في كنيسة القدّيس يوحنّا الإنجيليّ في المدرسة المارونيّة في روما.

مؤلَّفات يوسف شمعون السمعاني

يُمكِن تاريخيًّا توزيع المصادر البحثيّة عن السمعاني إلى فئتَين: مصادر مُتقدِّمة من القرن التاسع عشر وحتّى العقد الثالث من القرن العشرين، ومصادر متأخِّرة ظهرَت في النصف الثاني من القرن المُنصَرِم. وليس القصد بهذا التوزيع الشكليّ مُجرَّد التراتُب الزمنيّ. فثمّة خصال مُشتركة عند كلّ من الفئتين المذكورتين. فالفئة الأولى، وقوامها ما ورد عند الأب يوحنّا نطَين والمطران يوسف الدبس والأب لويس شيخو اليسوعيّ ويوسف خطّار غانم، تميل إلى التعميم دون التخصيص، وإلى الإشارة واللمح من دون التوغّل في

---

[١] راجع الخوري ناصر الجميّل في كتابه ...***Les Echanges Culturels***، ج١، ص ٤٢١.

[٢] نطَين، يوحنّا، **نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية**، المُقدِّمة، مطبعة انتشار الإيمان المُقدَّس، ١٨٨١، ص ٢. أمّا الجميّل فقد ذكر تاريخ ٣٠ أيلول لتولّي السمعانيّ هذا المنصب. راجع: الجميّل، الخوري ناصر، "يوسف شمعون السمعاني الحصرونيّ"، مجلّة المنارة، ١٩٨٨، العدد الأوّل، ص ٤٢.

[٣] يقول الجميّل ما حرفيَّته: "عيَّنه ملك الصقليّين ومن ثمّ ملك إسبانيا، شارل الرابع سنة ١٧٣٩، مؤرّخ مملكة نابولي..." وفي مكان آخر بالفرنسيّة: “Charles IV, alors Roi des deux Siciles, et depuis Roi d'Espagne, le nomma en 1739, historiographe du Royaume de Naples...” (***Les Echanges Culturels***...,p.430). أمّا صفير فيقول في هذا الصدد ما حرفيَّته: "دعاه كارلوس الرابع ملك نابولي وصقلّية، وأنعمَ عليه بلقب مؤرّخ للمملكة..." (المنارة، ١٩٨٤، العددان ١و٢، ص ١٧٣). ويُشير نطَين إلى أنّ الملك كارلوس الرابع " ملك نابولي وصقلّية"، هو نفسه شارل الرابع، "ملك إسبانيا".

[٤] نطَين، يوحنّا، **نبذة**...، ص٢.

[٥] لم تتَّفِق المصادر على تاريخ وفاة السمعانيّ. فبعضها حدَّد تاريخ الوفاة في ٣١ كانون الأوّل ١٧٦٨(الدبس، فهد، حرفوش)، والبعض الآخر حدَّده بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٧٦٨ (نطَين، غانم، ديب، رزق والجميّل). لكنّ كتاب بطرس ديب حول وصايا السماعنة يحسم هذه المسألة لأنّه يستند إلى الوثائق- الوصايا –كما ورد في كتابه المذكور صفحة ١١ و١٢، وكما أشرنا إليه سابقًا. وعليه، فالتاريخ الصحيح لوفاة السمعاني هو ١٣ كانون الثاني ١٧٦٨.

[٦] مجلّة المنارة، "مطبوعات: وصايا السماعنة"، ١٩٣٩، العدد ١، السنة ١٠، ص ٦٨٩.

التفاصيل. إذ إنّ الغاية الفكريّة لأبحاث هذه الفئة، أو هذه المدرسة، كانت في الإضاءة على شموليّة التراث والإحاطة بجوانبه المُختلفة، من دون التخصُّص في شخصيّاته وأعلامه كلٍّ بمفرده كنموذج يُحتذى. أمّا الفئة الثانية، وقوامها الأباتي بطرس فهد والأب بطرس ضو والأب بولس صفير والأب أنطوان ضو وسواهم، فقد بدأت تميل نحو التخصُّص والتركيز على بعض الأسماء، مُنصرفةً لدراسة واسعة حول عَلَم من الأعلام، ساعيةً للدخول في التفاصيل التي كان قد اكتنفها الغموض، ومُحاولةً التدقيق في البحث والتنقيب توخّيًا للحقيقة العلميّة المطلوبة. لذا أخذنا العناوين من الفئة الأولى، وجَمَعنا التفاصيل من الفئة الثانية. لكنْ تبيَّن لنا في سياق البحث، أنّ الخطوة المُتقدِّمة التي أقدمت عليها الفئة الثانية، ما زال يعتَوِر بعض كتّابها وباحثيها نزر من الشوائب التي تستوجب المزيد من المعالجة والتدقيق في المادّة المدروسة. وأبرز تلك الشوائب غياب محاولات الاستنفاد في الموضوع الذي يكون تحت المجهر. أقول "محاولات"، لأنّه يصعب الوصول إلى الحقيقة العلميّة "النهائيّة"، وإلاّ بطُل عمل اللاحقين، واكتفينا بعمل السابقين. لكنّ المحاولة تعني الاتّجاه والسعي، أي أنْ يسعى الباحثون نحو الاقتراب ممّا نعتبره "نهائيّة" الحقيقة. فإذا أخذنا مؤلَّفات السمعاني كمادّة للبحث، نجد أنّ الدارسين لم يتوصّلوا بعد، بل رُبّما لم يُحاولوا الوصول، إلى ثَبْتٍ دقيق شامل وبالأرقام والتواريخ يفضي بنا إلى حقيقة نتاج هذا العلاّمة. فإذا عدنا إلى أبرز المراجع حول السمعاني، نجد أنّ المطران يوسف الدبس يذكر ٣٤ كتابًا للسمعانيّ، ويترك الباب مفتوحًا، إذ يُشير إلى كتب أخرى له مفقودة. ويتوصَّل يوسف خطّار غانم إلى ذكر ٣٣ مؤلَّفاً، مع إشارته إلى أنّ هذه المجموعة تُشكِّل بعض مآثِر السمعانيّ. أمّا الأب لويس شيخو فيوجز لائحته، ويكتفي بذكر ٩ مؤلَّفات، مُختَتِماً بعبارة "وغير ذلك ممّا يؤسَف عليه لفقدانه". ومن الذين اهتمّوا حديثًا بأعمال السمعاني الأب بطرس ضو، الذي يذكر ٢٩ كتابًا و"غير ذلك من المقالات والخطب والكتب في مواضيع مُتنوِّعة"؛ والأب بولس صفير، الذي يكتفي بذكر ١٩ كتابًا، مُشيرًا إلى مؤلَّفات أخرى تقع "بالعشرات والمئات، ولم نأتِ على ذكرها... لنترك المجال لدراسة أخرى مُستفيضة". والأباتي بطرس فهد في كتابه عن السمعانيّ، والذي ذكر فيه ٤٧ كتابًا. غير أنّ الثبت الأكثر إحاطة بأعمال السمعاني والأقرب إلى الحقيقة، فهو الذي انتهى إليه الخوري ناصر الجميّل، الذي توصَّل إلى ذكر ٤٦ كتابًا له، باستثناء الرسائل والتقارير.

مسألة "اللَّيتنة"

نشأت هذه المسألة مع بداية توطيد العلاقات السياسيّة والدينيّة بين الموارنة والغرب منذ عهد الملك لويس الثالث عشر. وتجذَّرت هذه العلاقة مع رجال دينٍ من الموارنة استقرّوا في باريس وروما، وتركوا مؤلَّفات لهم بالفرنسيّة أو اللاتينيّة أو الإيطاليّة[١]، فكان لهم أثر في الحركة الثقافيّة في أوروبا مع مطلع النهضة اللبنانيّة وخلالها.

والسؤال المطروح، لماذا اختار الموارنة هذا الاتّجاه؟ ألا يخشَون على هوّيّتهم المشرقيّة من الذوبان في بوتقة الغرب؟ أيتنازلون بذلك عن دورهم الروحيّ والثقافيّ لسواهم، بحيث يتحوَّلون إلى جماعة تابعة بدل أنّ يستمرّوا في كونهم جماعة متبوعة؟ وقد ازداد هذا الضرب من التساؤل، بل اللَوم والنقد، فّي أوساط بعض المُفكِّرين، حين برز أعلام كبار كالسمعانيّ، ورسَّخوا هذه اللُّحمة مع الغرب تنظيمًا وتأليفًا ومشاركةً في المجامع الكنسيّة المتتالية.

---

[١] راجع كتاب الخوري ناصر الجميّل بالفرنسيّة: ***Les Echanges Culturels…***, Beyrouth, 1984, Vol.1, pp.209-530

ويأخذ البعض على السمعانيّ أنه توغّل في هذا الاتّجاه، فانتقل رسميًّا من الكنيسة المارونيّة إلى الكنيسة اللاتينيّة، وانخرط في الدوائر الفاتيكانيّة بحيث أصبح قاصدًا رسوليًّا وأمينًا لمكتبة الفاتيكان. وبدلًا من أن يسعى إلى حضور مارونيّ مشرقيّ مميّز، ساهم، من حيث يدري أو لا يدري، في ذوبان الشخصيّة المارونيّة المُميَّزة في خضمّ الشخصيّة الكاثولكيّة العامّة. وبدلًا من أن يُصبح مُعلِّمًا مارونيًّا مشرقيًّا في الغرب، بات علاّمة كاثوليكيًّا من أصول تعود إلى جذور مشرقيّة.

ويُمكِن الردّ على أصحاب هذا الرأي بالسؤال الآتي: هل كان الغرب مُستعدًّا، بل هل هو اليوم على استعداد، لتقبُّل نجاحات فكريّة أو روحيّة شرقيّة، تبقى على مزاياها وخصالها الشرقيّة وهي تعمل في الغرب تأليفًا وتنظيمًا وحضورًا فكريًّا لافتًا؟

لربّما أدرك السمعانيّ خطورة هذا الأمر فوَلَجه من الباب الخلفيّ، لا تحايُلًا أو مراوَغة، بل تمكُّنًا من بناء منبر خاصّ غربيّ الملامح الخارجيّة، مشرقيّ المعالم الجوهريّة. الشكل الغربيّ طلاء يلفت انتباه الإنسان الإيطاليّ أو الفرنسيّ، ويُعدّه لقبول الجوهر المشرقيّ مادّة جديدة لثقافة وُبعدًا آخر من أبعاد التراث الإنسانيّ.

وإثباتًا لحقيقة الأمر، نلاحظ أنّ السمعانيّ، عندما جاء قاصدًا رسوليًّا إلى لبنان، جاء لتنظيم شؤون الكنيسة المارونيّة، وعقد المجمع اللبنانيّ من أجل إعطاء هذا التنظيم صفة نابعة من المشرق. ونلاحظ أيضًا أنّ زيارته الأولى للمشرق من قِبَل روما كانت بداعي جمع المخطوطات الشرقيّة من لبنان وسورية ومصر وقبرص. وكأنّه بدأ، من حيث لا يدري، بحركة إستشراقيّة فكريّة بحثَت عن أصول النتاج اللاهوتيّ والفلسفيّ والأدبيّ النابع من الشرق، قبل أن يأتي الغربيّون إلى هذا الشرق سائحين باحثين مؤلِّفين.

وإذا عدنا إلى مجمل مؤلَّفات السمعانيّ، للَفَتنا إلى الآتي: من أصل ستّة وخمسين مؤلَّفًا، تتوزَّع هذة الأعمال إلى خمسة وعشرين عملًا في مواضيع شرقيّة، وتسعة أعمال في مواضيع غربيّة، وثمانية عشر عملًا في مواضيع عامّة لاهوتيّة فلسفيّة، وأربعة أعمال مُشتركة تعالج الموضوع نفسه كما بدا عليه في الشرق وفي الغرب.

وإذا عُدنا إلى اللغات التي ألَّف بها السمعانيّ، لتبيَّن لنا كذلك أنّه وضع ثلاثة وعشرين كتابًا بالعربيّة، وإثنين بالسريانيّة، وأحد عشر كتابًا باللاتينيّة. ولم تذكر المصادر لغة التأليف لسائر الأعمال.

نخلُص إلى القول إنّ الأثر الشرقيّ في أعمال السمعانيّ يبقى الغالب، مضمونًا ولغةً. وهذا يعني أنّ "ليتنة" السمعانيّ كانت وسيلة ولم تكُن غاية. هي طريق لنشر جذوره التراثيّة المشرقيّة في أوساط الغرب المُثقَّف، ومن على منابره الروحيّة والفكريّة. نقول هذا ليس دفاعًا عن السمعانيّ، بل تأكيدًا لحقيقة أثبتناها بالأرقام والوقائع. وهو بهذا المعنى لا يختلف عن العديد من أقرانه من أعلام اللبنانيّين منذ القرن السابع عشر وحتّى اليوم، الذين توجّهوا بنتاجهم، أو بقسم كبير منه، إلى الغرب وبلغة الغرب، علّهم بذلك يُسمِعون الصوت المشرقيّ بتراثه وهمومه وتطلُّعاته.

مكانته

رغم الكثير الذي كُتِبَ عن يوسف شمعون السمعانيّ، ورغم ما نُشِر له من أعمال، فلا يزال هذا العَلَم اللبنانيّ يشكِّل موضوعًا بارزًا للبحث والدراسة، ليس بسبب أهمّيّته الفكريّة وحسب، بل بسبب الغموض والإشكال الذي رافق مؤلَّفاته وجوانب سيرته.

والإشكال الأبرز باعتقادي هو الفهم الخاطئ والشائع حول قيمة هذا العلاّمة. فمعظم الباحثين يكادون يتّفقون على أنّ مفتاح هذه القيمة تكمُن في ثلاث مسائل: أوّلًا: الألقاب العظيمة التي حصل عليها، والمناصب الرفيعة التي تبوّأها في الفاتيكان، وثانيًا: هذا الكمّ الهائل من المؤلَّفات التي تركها، وفي طليعتها كتابه الشهير والذي يحمل عنوان "المكتبة الشرقيّة"، وثالثًا: الدور الهامّ الذي قام به في إعداد المجمع اللبنانيّ وتنظيمه. لا شكّ أنّ الألقاب والمناصب مدلول واضح على مكانة صاحبها في مجتمعه، وفي المؤسّسات التي انتمى إليها وبرع في تولي المسؤوليّات فيها. لكنّ هذه المكانة الرفيعة هي ضرب من التكريم العابر والتفوُّق الذي يزول بزوال صاحبه. ولا شكّ أنّ دور السمعانيّ في إعداد وثيقة المجمع اللبنانيّ هو دور تاريخيّ بارز. أمّا الثابت فهو الأثَر المكتوب. والأبقى هو الأثَر الفكريّ أو الإبداعيّ الذي يُشكِّل سجلًّا لصاحبه، وإشارة لمساهمته في تاريخ الفكر البشريّ، وتطوُّر الثقافة الإنسانيّة الشاملة. من هنا أجِدُني من المدرسة القائلة بأنّ العمل التأليفيّ هو أسمى وأبقى أثر يُمكِن للإنسان أن يتركَهُ من بعده، فيخلد بخلوده أو يزول بزواله. وإذا ما اتّفقنا على أنّ المؤلَّفات هي الأهمّ والأثبت من كلّ الألقاب والمناصب، ننتقل إلى الإشكال الثاني في محاولة توضيح قيمة هذا الرجل الرئيسة. وهنا يتّفق معظم الباحثين، كما ذكرت، على أنّ "المكتبة الشرقيّة" هي مفتاح شهرة السمعانيّ، وهي بالتالي مصدر القيمة الأساسيّة لهذا العلاّمة.

وأراني هنا مُخالفًا لهذا الرأي بالنسبة لتحديد القيمة الفكريّة لهذا الرجل، ولمفتاح هذه القيمة. صحيح أنّه قام بدور كبير في جمع التراث المشرقيّ المسيحيّ، وصحيح أنّه جمع وصنَّف المخطوطات الشرقيّة، وقام بتبويبها، ووضع لها دليلًا هو بمثابة العمل الموسوعيّ الذي يكشف "سحر الشرق" بمؤلَّفاته هذه المرّة، لا بشعوبه وطبيعته وآثاره وتقاليده وأعرافه.

صحيح أنّ هذا العمل الضخم قد يُشكِّل الوجه الآخر للاستشراق، وهو الوجه المُضيء والفاعل والمُعيد للشرق مكانته الفكريّة والتراثيّة والثقافيّة في تاريخ الأمم والشعوب. لكنّ هذا العمل، على أهمّيّته، يبقى عملًا في باب التجميع والتصنيف، أي في باب تراكميّة المعرفة لا المعرفة بذاتها. هل يعني ذلك أنّني أحاول النَيل من مكانة علاّمتنا؟ على العكس تمامًا، إذ أسعى إلى تسليط الضوء على مفتاح فهمنا ليوسف شمعون السمعانيّ، وبالتالي على استبدال فكرة الجمع والتصنيف بفكرة البحث والتفكير والإبداع في إيضاح الأولويّات، وتكريس التراتبيّة الصحيحة في تقويمنا لهذا الرجل. قيمة السمعانيّ عندي ليست إذًا في "المكتبة الشرقيّة" على ضخامتها وأهمّيّتها وشهرتها. قيمة السمعانيّ في كُتُب أخرى مجهولة وغير منشورة، كُتُبٍ يمكن تصنيفها في باب الفلسفة أو اللاهوت، خاض المؤلِّف غمارها، وغرف من معين الجدليّة المنطقيّة، وعالج عبرها مسائل شغلَت تاريخ الإنسانيّة وما تزال. تلك المعالجات تكشف مدى القدرة الفكريّة والدقّة العلميّة والاكتناز الثقافيّ الذي تمتّع به المؤلِّف. وهذا بِحَدّ ذاته يُشكِّل المصدر الأوّل لقيمته، خصوصًا إذا ترك أثرًا يتّسم بمثل تلك المزايا.